فلسفة المابعد في النقد المغاربي المعاصر
القراءة لعبد المالك مرتاض) وقفة مع كتاب (في نظرية
د. إبراهيم بوغفالة. جامعة ابن خلدون. تيارت

مقدمة:

حاول عبد المالك مرتاض من خلال كتابه نظرية القراءة أن يؤسس لنقد عربي جديد مبني على الانفتاح القرائي وذلك بعدم التقيد بمنهج محدد يجعل القراءة ثابتة المعيارية، وإن كان عبد المالك مرتاض من الذين ارتبطوا في مراحلهم الكتابية بالفترات النقدية القديمة، إذ دافع عن النقاد القدماء وتبنى أفكارهم وحاول التجديد فيها وبعثها من جديد فكر الجاحظ والجرجاني وغيرهم، إلا أنه بدا في السنوات الأخيرة مهتما بالمناهج النقدية المعاصرة العربية منها والغربية، لكنه دائما نلفيه يبحث عن الجديد الذي يتجاوز به أو يعدل به فكرة أو منهجا غربيا وافدا إلى الساحة النقدية المعاصرة ، وبذلك وصل إلى ما يسمّى بخطاب المابعد أو فلسفة المابعديات التي أشار إليها في كثير من كتاباته دون أن يضع لها كتابا يخصها بالشرح والدراسة، ولعل هذه المداخلة ستحلل بعض مقولات مرتاض ومذهبه الجديد في النقد المابعدي، وللوصول إلى هذا الشكل النقدي الفلسفي الجديد لابد من وضع تصور يقرب لنا عبد المالك مرتاض وآراءه النقدية والمدارس التي انتقدها.

تقلّب فكر مرتاض عدة تقلبات لما له من قدرة عجيبة في استنطاق وإفراغ النصوص من محتوياتها ، فهو أديب ناقد يدرك ويعلم كيف يمارس النقد باحترافية كبيرة على النصوص بأسلوب أدبي فريد، وقبل أن نرسم مخططا لمسيرة عبد المالك مرتاض النقدية

لابد من الإشارة إلى كتبه التي ألفها في النقد حتى يدلنا البيان على المدرسة النقدية التي ينتسب اليها و المنهج الذي يتبناه.

أولا: النقد المرتاضي التقليدي:

بدأ مرتاض رحلة نقدية بصفة ناقدا تقليديا مهتما بما هو قديم ، إذ حاول فهم التراث العربي فقلد في إبداع النصوص الأدبية وقلد في تحليلاتها وكتبه شاهدة على ذلك وكشفت عن أحكامه الانطباعية الذوقية ، فكتابه الموسوم بـ "القصة في الأدب العربي القديم" من أنفس الكتب التي لخّص فيها مرتاض صور المدرسة الانطباعية ثم تلاه بكتاب "محضية الأدب المعاصر في الجزائر"، فتحدث عن الأدباء والنقاد والقدماء أمثال الجاحظ وابن دريد وابن طفيل وتحدث عن بعض الشعراء كالمجنون وابن جميل، ومن الأحكام التي ساقها قوله من جميل بثينة واصفا شعره "ومن عجيب الأمر أني لم أر قصيدة تزاحي هذه بحرا ورويا"(1)، معلقا على قصة جميل ، ذاكرا أهم الصفات التي يتميز بها شعره ثم يردف كلامه قائلا : "أي قصيدة أشد تعبيرا عن حالة الحزن من هذه التي رويت لك؟ بل أي شعر يمكن أن يكون أحزن من هذا في لغة الضاد"(2).

فإذا تأملت هذه الأحكام وجدتها لا ترتكز على منهج يضبطها، فهي نبع مشاعري وعواطف خالطت أفكار الشاعر فجاءت كأنها حجج في حد ذاتها عبرات أديب تأثر بأديب آخر فحكى على لسانه ما يجده من حزن وألم ولوعة فراق. ومرتاض لم يستمر في انطباعيته التي كانت تنفس عليه كل إنتاج يجرفه إلى فضاء النقد المعاصر، لكن كان صاحب رؤية عميقة فهو نقد ما يمارسه من نقد انطباعي على النصوص الأدبية لا يعقل الجديد الوافد إلى ساحة النقد، فالمراس النقدي ترك في ذات مرتاض حب البحث والاطلاع على منجزات النقاد القدماء والمعاصرين.

ثانيا: عبد المالك مرتاض الناقد التاريخي:

1 . عبد المالك مرتاض، القصة في الأدب العربي القديم، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط1، 1968، ص100.
2 . المرجع نفسه : ص103.

لما ظهر النقد التاريخي في أوربا لم يلبث أن وصل إلى الجزائر ، فانبرى له جماعة من النقاد كان رائده في ذلك عبد المالك مرتاض الذي أثرى المكتبة العربية بكتاباته في هذا المنهج النقدي الجديد، دون أن يتخلى عن النقد التقليدي ، ومن المؤلفات التي ألفها:

1. نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر:(1925 - 1954)
2. كتاب فن المقامات.
3. كتاب فنون النثر الأدبي في الجزائر: (1931 - 1954)

وكان الناقد يوسف وغليس مهتما بكل مراحل النقد المرتاضي ، فقد تطرق إلى هذه المرحلة النقدية المرتاضية قائلا : "تشترك هذه الكتب الثلاثة بحكم إطارها المعجمي الموحد في أنها لا تكتفي بدراسة قلة من النصوص، وإنما تتجاوز ذلك إلى دراسة المتون الأدبية العربية التي تمتد على فترة تاريخية مطولة لا تقل عن عشرين سنة من جهة، ومن جهة أخرى كما أن الفاصلة التاريخية بين زمن تلك المتون وزمن دراستها _في أحسن الأحوال_ عن خمسة عشرة سنة من جهة أخرى وهي إحدى سنن النقد التاريخي الذي يأبا دراسة النصوص المتزامنة مع الناقد ولا يقوى على ذلك ما لم تدخل تلك النصوص متحف تاريخ الأدب"(1).

ومرتاض تحققت فيه كل هذه السمات النقدية التاريخية ، فإذا تأملت كتابه فن المقامات ألفيت بعض مراحل فن المقامة عبر عصورها القديمة والحديثة، فذكر تطورها التاريخي وفصّله تفصيلا وقدّم أدباء على أدباء في الجانب البلاغي.

وكتب مرتاض في هذه المرحلة غلب عليها الطرح التاريخي كونها كتبا أدبية بلسان الثورة الجزائرية، لأن السياسة الجزائرية كانت تسعى إلى نهضة جديدة من أجل استعادة الذات ومجدها الضائع، فعملت على وتر الحس القومي،[2] فألّف مرتاض في هذا الجانب، وأغلب نصوصه في هذه الفترة نصوص أدبية تتضمن الطرح التاريخي.

ثالثا: مرتاض الناقد البنيوي:

1 . يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض، ص38.

2 . شارف فضيل، مناهج النقد المعاص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مص، 1997، ص26

تحولت الرؤيا النقدية عند مرتاض وتوسّعت إلى العالمية، فالعالم أصبح يشهد تحولات كثيرة بسبب التحولات الفلسفية التي مسّت جميع مناحي الحياة، فأوروبا تغيرت في منظومتها الفكرية والعفوية بسبب ما جاء به الفلاسفة المعاصرون فخرجت في ساحة النقد البنيوية كطرح بديل عن عمل المناهج السياقية التي تعمل على الشكل الخارجي للنص، وكان لمرتاض حظ من هذه التساؤلات النقدية المعاصرة، حيث حاول التجريب هو كذلك على منجزات غربية ، فأرسى قواعد التحليل البنيوي في العالم العربي عامة والجزائر خاصة، فحاول إعادة صياغة المصطلح المترجم عن السرقات اللغات اللاتينية، إذ استقر المصطلح تقريبا في كلمة البنيوية، يقول: "وذلك عوضا عن الاستعمال النحوي السليم الذي هو إما بنية وذلك كما تقول في النسبة إلى (فتية) (فتي) على القياس لأنك تجريه مجرى ما لا يعتل، وهو مذهب أبي عمر بن العلاء، كما يمكن أن يقال (بنوي) وهو في رأينا أخف نطقا وأكثر اقتصادا لغويا وهو يذهب يونس بن حبيب"(1).

يبدو مرتاض من خلال تفسيره لمصطلح البنيوية أقرب إلى وجهها للتعريب الصحيح لما كان من ممارسات لغوية قديمة، فثقافته السابقة وسّعت له الرؤيا فأتى بما يناسب هذا المصطلح عند العرب، وتكفي في ذلك إشاراته إلى أعلام اللغة القدماء كابن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهم.

ولما ألّف الغربيون في البنيويات وبرزت أعلام أوربا الأدبية تنادي بتضييق المنهج البنيوي على النصوص الأدبية كان في بلاد العرب نقاد يردون عن صدى النقد الأوروبي البنيوي، فألف مرتاض وحده سلسلة كتب في المنهج البنيوي منها،

- النص الأدبي من أين وإلى أين؟ _1983
- بنية الخطاب العربي _1986
- عناصر التراث الشعبي في اللاز
- دوني الأمثال الزراعية _1987

1 . عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة الجزائر، ط1، 2002، ص38.

- القصة الجزائرية المعاصرة
- الألغاز الشعبية

هذه السلسلة التي ألفها مرتاض كلّها وفق المنهج البنيوي وكان تحليله مناسبا لما جاء به ميشال فوكو، دريدا، كريستيفا، وياكبسون، وغيرهم.

ثم راح يتتبع كل جديد نقدي معاصر خاصة الغربي منه إذ تصدى النقاد العرب في كيفية تقريب وترجمة كل وافد إلى البنية العربية من هذه المناهج والفلسفات الغربية، فكتب عن الأسلوبية والنقد والسيميائيات والقراءة والتلقي وغيرها.

وكل إسهامات مرتاض في هذا الباب كانت على سبيل التجريب ، لأنه كان يعلم بأن المناهج النقدية الوافدة من أوروبا وغيرها في الدول الغربية ما هي إلا تجريب وفلسفات سيضرب عنها التاريخ صفحا وينسي بعضها بعضا، وقد حدث ما كان يتصوره وينظر له في مقولة الشمولية التي تعتبر قفزة حقيقية لما بعد الحداثة. يقول: "أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ولا أقول منهجا تكامليا إذ لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، مثل هذا المنهج مستحيل التطبيق علميا..."(1). وهذا المنهج المرتاضي أعرب عنه بوضوح في رفضه للتكامل في المنهج، فنحن- كما يقول - نعالج النص دون أن نقع في فخ البنيويين الرافضين للإنسان التاريخ والحقيقة والمجتمع، ولا في فخ الماركسيين والاجتماعيين الذين يعللون كل شيء ثقيلا طبيعيا، ولا في فخ النفسانيين الذين يرون كل إبداع أنه سلوك نفسي...(2).

رابعا: عبد المالك مرتاض الناقد الحداثي:

تجاوز عبد المالك مرتاض المناهج النقدية السالفة وأحال أن يلحق بالنقاد الحداثيين، محطما بذلك المدارس التي كانت سائدة كالرومنسية والواقعية، لأن الحداثة في نظره الآن نهضة جديدة وسوق عالمية يجب دخولها،[3] فالعقل هو الدليل إلى هذا الجديد

1 . عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة، دط، 1986، ص103.

2 . عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص117.

3 . ينظر : رضوان جودت زيادة، صدى الحداثة مابعد الحداثة في زمنها القادم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص 33

والداعي إليه ، وهو النمط الذي تسير وفقه فلسفة الحداثة [1] ، فأصدر كتبا تدل من عناوينها على تخطي عبد المالك مرتاض اللسانيات والأسلوبيات وتمثّل ذلك في الكتب الآتية:

كتابه السيميائي (ألف ليلة وليلة لحكاية جمال بغداد) 1993.

وكتابه التفكير (أ/ي) دراسة سيميائية لابن ليلاي لمحمد العيد 1992.

وكتابه شعرية القصيدة تحليل قصيدة استحان يمانية 1995.

وإذا تأملت هذه المؤلفات النقدية ألفيت عبد المالك قد تخطى وبشكل واضح البنيويات والأسلوبيات إلى مناهج نسقية جديدة تمثل في معالم الحداثة تمثل في المنهج السيميائي والمنهج التفكيكي.

والجديد الذي أضافه مرتاض للنقد الوافد إلى البيئة العربية تمثّل في تطبيق هذه المناهج على التراث العربي فحاول استنطاق النصوص وكشف باطن القصائد والقصص التي حملت معان مفتوحة متعددة، وهذه لمسة تفرد بها مرتاض عن غيره من النقاد الذين نظروا وجمعوا المصطلحات عن هذه المناهج فقط، فأغلبهم لم يعمد إلى تطبيقها خاصة على ما هو قديم ، وبهذا كشف مرتاض عن حداثة النص وإن كان قديما ، فألف ليلة وليلة هي لمؤلف واحد عربي الثقافة من زمن هارون الرشيد(2).فتعدد المؤلفين في هذه الرواية شيء غريب فكيف تتوحد اللغة ويتعدد المؤلفون هذا لا يبرره إلا شيء واحد هو الوحدة الفنية للسرد والتي تعد من رهانات السرد الحداثي(3).

ودعوة مرتاض الحداثية لم تلبث أن تنقلب إلى ثورة ضد الحداثة التي كانت هي نفسها ثورة ضد كل سائد تقليدي،[4] فبعدما رفض فكرة تعدد المناهج (اللامنهج) في قراءة النص الأدبي تجاوز ما قاله سلفا وبنى قاعدة جديدة للنقد تمثلت في " .. . لنكن ما نشاء في مناهدجنا ولكن لا نكون فقط تقليدين " 5، إنها الصيحة التي بنى عليها كتابه في نظرية

1 .ينظر: فتحي التريكي، الحداثة والمعقول، في فلسفة الحدثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1992، ص30

2 . ينظر: حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، منشورات دار العرب، وهران، الجزائر، ص67. .

3 . عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص117.

4 . ينظر : جهاد فاضل، أسئلة النقد، الدار العربية، تونس، دت، ص217

5 . عبد المالك مرتاض، أ. ي (دراسة تفكيكية) ص9

القراءة أو ما سميناه (خطاب النقد المابعدي عند مرتاض)تعبيرا عن محتوى الكتاب ، فما هي الرؤيا الجديدة لنظرية ما بعد الحدثة أو خطاب المابعد عند مرتاض ؟

خامسا : الخطاب النقدي المابعدي عند مرتاض من خلال كتابه (نظرية القراءة) :

بعد المسار النقدي الذي تتبعناه للناقد الجزائري عبد المالك مرتاض ها نحن نقف عند الفلسفة الجديدة التي جاء بها ليؤسس نقدا جديدا معتصرا من خميرة الكتب والنظريات والفلسفات النقدية العربية والغربية قديما وحديثا، وخطابه النقدي الجديد تمثل في تأسيس نظرية قرائية جديدة من خلال مؤلفه المعنون بـ(نظرية القراءة) ، فما هي الفلسفة النقدية التي تخطى بها مرتاض خطاب الحدثة؟ ، وهل سيجد هذا الكتاب النقدي قبولا في الوسط النقدي العربي و الغربي ؟ ، ألا تعدّ فلسفة نظرية القراءة هدما لما بناه مرتاض منذ سنوات ؟ .

سنقف عند كتابه النقدي هذا ونحاول ملامسة الجديد الذي جاء به مرتاض أو النظرية النقدية الما بعدية للنقد المعاصر .

عند تتبع عناوين الكتاب (كتاب نظرية القراءة) نجده يتنقل بين الثلاثة النقدية من سلطة المؤلف (التاريخانية) إلى سلطة النص (اللسانيات البنيوية) إلى سلطة القارئ (نظرية الاستقبال أو القراءة والتأويل)، هذا أول ما يظهر للقارئ عند تصفح الكتاب، بل إن الفصل السابع كله كان يرمي إلى خطاب ما بعد الحداثة التي تجاوز بها الحداثة " ولقد اتفق والحداثيون الغربيون في عبثية عجيبة على ان المؤلف مات، اتفق على ذلك فاليرهم وفوكهم وبارطهم وطودوروفهم ... وآخرون منهم، وجاء الحداثيون العرب فلم يحيدوا عن الفكرة العابثة قيد أنملة في مواقفهم وحسبوا انهم يحسنون صنعا وأن مجرد ذلك سيجعل منهم حداثيين بامتياز، ولو تبين الحق من الباطل فيها والجد من العبث في مقرراتها ... " 1

وكان مرتاض ممن سلكوا هذه المسالك إلا أنه أدرك هذا اللعب والعبث النقدي كما سماه حبيب مونسي، وهذه الخطاطة تبين للقارئ الجديد الذي جاء به مرتاض من خلال كتابه نظرية القراءة :

1 . حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول ، منشورات دار الغرب، وهران، الجزائر، ص 67

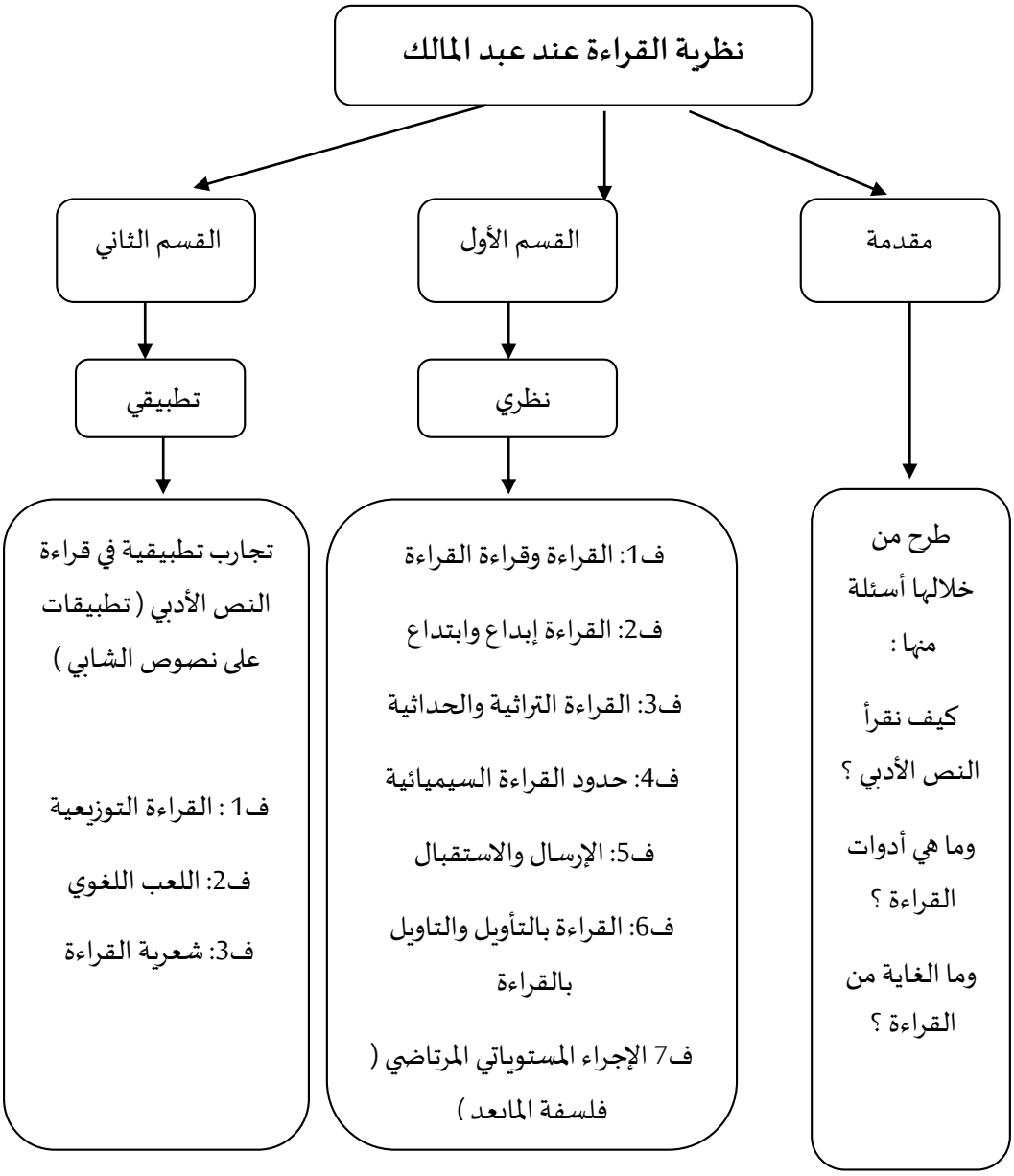

توضح الخطاطة معالم كتاب نظرية القراءة وترسم مسالك قراءة النص الأدبي وفق فلسفة مرتاض المابعدية، أو ما بعد الحداثة، و ترى بأن " القراءة المثمرة هي المتولدة عن تسجيل الملاحظات المتمحضة للمقروء ابتغاء الكتاب عنه، فكأن القراءة هي الأرق واللأصق

بالقراءة المنهجية الجيدة، فالقراءة إعادة انتاج لمقروء، فهي الأكثر مظاهر التناص مشروعية، والقراءة التي لا توحي بقراءة أخرى هي قراءة ميتة أو لا غيةأو أن الذي يزمع عليها لا يستطيع يحب أن يعد في الأموات "1

والقراءة على القراءة حياة للنص الادبي وبعث جديد للمعاني، فمن تعددت عليه القراءات وكثر نبش المعاني فيه لهو النص الذي لا يبلى ويبقى زمن طويلا ليدخل حيز الفناء، فالمعنى يتشكل في فضاءات قرائية جديدة كلما كان القارئ محترفا وهو ما سماه مرتاض بقراءة القراءة Qritique de la Qritique 2 وهو ما يقابل عند السيميائيين مصطلح (لغة اللغة) وعند النقد يعرف بـ: (نقد النقد) .

وقراءة القراءة أعم من هذين المصطلحين لما لها من انفتاح كلي واسع على النصوص الأدبية، فهي ممارسة أدبية نقدية على النص وصاحبه مع الاهتمام الكبير بالقارئ في الوقت نفسه، إلا أنها لا تمارس النقد الصريح الذي يعد استعلاء على النص وصاحبه، وإنما قراءة القراءة ابداع آخر يتحدث عن جمايات النص ومتعته[3] .

والقراءة عند مرتاض هي ممارسة تحليلية بعيدة كل البعد عن إصدار الأحكام النقدية التعسفية المتسلطة على النص كما كان النقد القديم يمارسها على النص الأدبي.

والقراءة المرتاضية قراءة تجعل القرابة شديدة بين القراءة و الكتابة، فكلاهما – حسب مرتاض - فعل إبداعي ، يقول : " كأن القراءة من هذه الوجهة تعني الكتابة ذاتها ... فإن الكتابة لا تكون إلا بفضل القراءة الباطنه أو المسبقة، ... وذلك بأني حين أكتب فإنما في الحقيقة أقرأ في نفسي فأطرحه نصا منصوصا على قراطاس، وإني لا أستطيع أن أكتب من منطق آخر إلا إذا كنت قرأت وقرأت ثم قرأت، فكأن القراءة أمّ والكتابة ابنتها،... أو كأن القراءة أصل والكتابة فرع منها أو مظهر لها " [4]

1 . عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة (تأسيس لنظرية القراءة العامة والقراءة الأدبية) دار الغرب، وهران، ص 30

2 . ينظر: المرجع نفسه، ص 31

3 . ينظر: المرجع نفسه، ص41

4 . المرجع نفسه، ص45

فالقراءة ممارسة إبداعية إنتاجية في الوقت نفسه، وهي إبداع على إبداع، فالقارئ المحترف هو الذي يولّد النصوص من نص واحد ثم يعيد سباكة النص الجديد مرات ومرات، فهو لا يقبل المعيارية الثابتة التي تقتل النص من القراءة الأولى كما يزعم أنصار علمنه الأدب ، وهو منفتح على أيديولوجيات كثيرة لم تقبض عليها اللسانيات البنيوية ولا السيميائيات والأسلوبيات، فالقراءة بهذا الشكل عالم جديد ونظرية واسعة منفتحة على النص الادبي .

ومما أفاده مرتاض من خلال تأسيسه لمستويات القراءة بفلسفته النقدية أنه كان بصيرا بما سيحدث للحداثة والمناهج النقدية المعاصرة، فراح يعتصر من هذا الركام النقدي خالص الأفكار تصفية وغربلة ثم صاغ للنقد المعاصر القراءة المستوياتية الجديدة التي سميناها خطاب المابعد في النقد المعاصر ، فما هي القراء المستوياتية عند مرتاض؟، وهل تعد نظرة استشرافية لمستقبل النص الأدبي ؟ .

هي قراءة افتاحية متسعة ، كريم عطاؤها إذا ما تخلى الناقد عن التعصب للمذهيات القرائية فلا يقرأ النص إلا وهو متحرر من جميع القيود المنهجية الأحادية، والقارئ الذي يقرأ النص سيميائيا أو بنيويا أو أسلوبيا كأنه لم يقرأ ولم يقدم خدمة للنص، لأنه لم يأت النص إلا من باب واحد والنص أبوابه كثيرة متعددة، يقول مرتاض معلقا على القراءة الأحادية للنص: " ... كأننا لم نقرأ، وكأننا لم نزد على تفتيح الشهية أو تهييج قرام النفس للقراى ... وعلى أننا نريد هنا القراءات الأيديولوجية التي بعضها نفسي وبعضها اجتماعي وبعضها بنيوي ... وبعضها سيميائي، فإنما تلك سيرة أخرى، ولكننا نريد أن نتحدث عن مستويات القراءة الواحدة، داخل مذهب واحد، أو مدرسة واحدة"[1]، وبهذا لا نحاصر النص من زاوية واحدة ولكن من زوايا متعددة، حتى يتكشف النص عن أسرار جليلة ومعان خفية وفق منهج إجرائي مركب يحلل به النص وهو ما يعرف بالقراءة المستوياتية المرتاضية، وهي كما يلي :

1 . المستوي القرائي اللغوي:

1 . عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة، ص 213

يقوم هذا المستوى على هدم وبناء اللغة النصية من جديد، فيتم حصر المعاني في أجزاء لفظية أو في جمل شعرية، حتى يسهل ترميم أو إعادة بناء معان جديدة بتركيب لفظي مختلف من قارئ لآخر .

2 . المستوى القرائي الحيزيّ:

يقوم هذا المستوى على الانفتاح الكلي على النصوص الشعرية والنثرية ، لا يراعي العروض ولا عناصر السرد حتى لا يفاضل بين الشكل الهندسي للنص أو الجنس الأدبي الذي أفرغ فيه، وهو مستوى جديد حل محل المستوى السريد الذي عرف النقد المعاصر باسم (فضاء النص) ، والحيز أوسع من الفضاء لأنه يعالج اللفظة في أصولها الشجرية، فيعرف القارئ اللفظة من حيث القدم والحداثة والعمق والسطح والقرب والبعد، وهي التي تحدد له المكان وترسم له جغرافية النص .

3 . المستوى القرائي الزمني:

يقوم هذا المستوى على المستوى الحيزي، فكلاهما يخدم الآخر ويقوم عليه، فالزمن في النص الأدبي مهم جدا، و هو الزمن الذي كان النقد المعاصر يعرفه، إنما هو الزمن المرتاضي ، إنما هو الإجراء الجديد الذي تفرّد به مرتاض عن غيره من الادباء والنقاد المعاصرين، وهو الزمن الذي يحمل النص ويحجب معانيه عن القراء السطحيين، والزمن في النص الأدبي حسب مرتاض هو الذي يعرفك كيف تدخل وتخرج من النص.

4 . المستوى القرائي الإيقاعي:

يقوم هذا المستوى على التآلف بين اللغة الشعرية وإيقاع ألفاظها، فالقصيدة التي ينتظم على بحر شعري ما وألفاظها لا تناسب إيقاع اللغة هي قصيدة قريبة إلى الموت باردة منسية من أول قراءة .

ومرتاض مال في هذا المستوى بالقارئ إلى النص الشعري لأنه الأقرب من حيث النسيج الإيقاعي منه إلى النثريات، والإيقاع في نظر مرتاض منه الداخلي والخارجي والعميق والسطحي وكلّها تلبي للنص حاجياته الجمالية، ومتى وفق الشاعر في إحكامها وفق في تحقيق الإمتاعية والإعجاب والتأثير في المتلقين، ويضرب مرتاض هاهنا مثلا يبين فيه شدة

الإعجاب عند المتلقي عندما يكون الإيقاع والحيز والزمان واللغة في محلها، وهذا المثل كان عبارة عن أبيات شعرية قالها أبو العتاهية في مدح الخليفية المهدي :

أتته الخلافة منقادة	إليـــــه تجر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له	ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحـــد غيره	لزلزلت الأرض زلزالها

فأعجب الحاضرون بها وكان ممن حضر بشار وأشجع السلمي ونفر من فحول الشعر[1]، وكان تأثيرها فيهم واسعا، ولو نظرت وتأملت هذا النص الصغير حجمه القليل لفظه والقصير إيقاعه للمست حركة وطربا يحرك فيك الإعجاب عند سماعها، هذه هي لمسة الشاعر المبدع الذي يرسل المعاني والإيقاع إرسال الماء لا شيء يعترضه في ذلك، ولو أراد المزيد من المعاني والألفاظ على هذا النغم الطروب الخفيف لزاد لا يقف .

5 . المستوى القرائي التشاكلي :

يقوم هذا المستوى على المماثلة كما عرفها القدماء ، لكن فيها لمسة مرتاضية تتمثل بالدورات السيميائية داخل النص الشعري ، وذلك بالمقاربات بين الوحدات النصية مرة بالتركيب ومرة بالإفراد، فيمزج الشاعر بين وحدتين متقاربتين لغويا، ويكون ذلك خلال وحدات كثيرة .... ،و بهذا الطرح التشاكلي يمكن تميز المؤتلف والمختلف في النص، فالنص له ثنائية التقابل بالضد والتآلف بالاتفاق.

خاتمة:

يعدّ إجراء اقراءة المرتاضية من الاجراءات العربية الخالصة ، فقد تمكن الناقد من رسم صورة شاملة للقراءة، وحثّ على اتّخاذ جميع الآليات المنهجية لقراءة نص أدبي، فالعيب عنده في الكاتب والقارئ معا، فالأول لم يدرك أسرار التأثير لجهله بالطرق الخفية

1 . ينظر: عبد القادر طالب، نظرية قراءة النث ومستوياتها الإجرائية عند عبد المالك مرتاض، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج: 12، ع: 1، بومرداس، الجزائر، 2020، ص1373

للنص، والثاني لم يملك آليات التحليل الحقيية للنص الأدبي، وإن كان مرتاض يؤمن بأن الكتابة القراءة من معين واحد لا يختلفان فالقارئ كاتب والكاتب قارئ.

وإن نظرته المابعدية للنص الأدبي جاءت تخط للحداثة ومزاعمها المنهجية، وهي صرخة نقدية في وجه من آمن بالمناهج الغربية يتبع في ذلك الفلسفات التي أسست المنهج ولم تؤسس أبدا لقارة منفتحة على النصوص الأدبية ، فهل يأخذ النقد فيما بعد الحداثة بهذا الإجراء القرائي المرتاضي وينظر له من باب العالمية في قراءة النصوص الأدبي؟.

يبقى السؤال مطروحا ينتظر إجابة متسعة الجوانب لفهم خطاب الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض وسيجيب لا شك على أسئلة ما بعد الحدثة ، وسيكون لمرتاضنا الحظ الكبير الأوفر في تأسيس نقد عربي جديد بعيدا عن الفلسفات والأيديولوجيات الغربية التي قتلت النص وسجنت مؤلفه.